

The Paradoxal Relationship Between Language And Society According To Benvenist

لاسن سعيدة Lacene Saida

طالبة دكتوراه في المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

saidalacene@gmail.com

بن بوزيد حياة Benbouzid Hayet

أستاذة التعليم العالي في المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة

Benbouzid.hayet@ensb.dz

تاريخ الاستلام: 2025/06/05 تاريخ القبول: 2025/07/14 تاريخ النشر: 2025/09/01

الملخص:

نعمد في هذا المقال الى شرح وتوضيح المفارقة النوعية في العلاقة التي تربط بين اللغة والمجتمع من منظور بنفست، والتي تحمل تصوّرا جديدا لهذه العلاقة وفقا لتصوره لماهية اللغة، بحيث يقول بوجود تلازم وتحيث بينهما على المستوى الاساسي- على حدّ تعبيره- من جهة، ويقول بنوع من التعالي والأسبقية للغة على المجتمع المستوى السيميولوجي و السمانتيقي من جهة اخرى.

الكلمات المفتاحية: اللغة (اللسان)، المجتمع، المستوى التاريخي، المستوى الاساسي، المستوى السيميولوجي .

Abstract: In this article, We intend to explain and clarify the paradoxal relation ship between language and society for Benveniste, which contains a new perception of this relation ship according to his conception of what is language. He says that their is inherence and synchronicity on one hand at fondamental level- as he named it-, and on the other hand a kind of primacy and transcendance of the language at the semiological and semantic level.

Keywords : Language – society - historical level – fondamental level- semiological level.

المؤلف المرسل: لاسن سعيدة

1. مقدمة:

من البديهي أن الاجتماع من طباع البشر، وحتى يستقيم هذا الاجتماع لابد من وجود أليات تكفله. وتعدّ اللغة من بين هذه الاليات الأساسية والضرورية، التي تحفظ هذا الاجتماع وتضمن استمرارته عبر الزمن. لذا جرت العادة على تعريف اللغة بأنها "أداة للتواصل ووسيلة للتعبير عن أغراض وحاجيات الناس" (Didier Julia, 1964,p157). بمعنى آخر، إن اللّغة هي المرآة التي تعكس الواقع الاجتماعي، لاسيما وأن كل مجتمع له لسانه الذي ينطق به ويميّزه. وربما هذا ما يفسّر كون المجتمع قد حضي عير التاريخ بحظ أوفر من الدراسات. بالمقابل نجد أن الاهتمام باللغة، وإلى زمن ليس ببعيد، كان منحصراً تقريباً قبل القرن 19 في دراسات تاريخية من أجل فهم النصوص وتأويلها مثلاً في إطار النحو المقارن، الهيرومنتيقا وكذلك الفيلولوجيا.

ولكن، هل يعني هذا أن هناك نوعاً من الأسبقية للمجتمع على اللغة؟ هذا ما يرفضه إميل بنفست (1902-1976) Emile Benveniste، ويرى أنه ناتج عن التباس عميق يعود في الأصل إلى سوء فهم لطبيعة اللّغة ذاتها، وطبيعة العلاقة التي تجمعها بالفكر.

ارتأينا في هذا المقال أن نوضح حقيقة العلاقة التي تربط بين اللّغة والمجتمع عند بنفست، من خلال طرح الإشكالية الأتية: لماذا لا يمكن القول بأسبقية المجتمع على اللغة حسب بنفست؟ وهل يعني ذلك أنه لا يمكن الفصل بينهما ودراسة كل واحد منهما دون الآخر بطريقة مستقلة؟ وإلى أي حد يمكن المقاربة فعلاً بين العلاقتين: علاقة اللغة بالفكر وعلاقة اللغة بالمجتمع عنده؟

للإجابة عن هذه الإشكالية، اعتمدنا على منهجي الاستقصاء والتحليل، بحيث عملنا على تتبع واستكشاف معاني اللغة والفكر والمجتمع في مفهوم بنفست، لكي نستشف منها مواقفه ونستخلص التفسيرات الممكنة لمختلف أشكال العلاقات التي تربط بينها في نظره.

بداية، يقر بنفست أن هناك التباساً كبيراً في علاقة اللغة بالمجتمع، ولعلّ هذا الأمر في نظره -وإن كان هو نفسه لا يصرح بذلك علناً- يعود إلى أن الوهم نفسه الذي مفاده أن اللغة تابعة للفكر، هو الذي طال فيما بعد ليؤثر على تصوّرنا للعلاقة التي تربط اللغة والمجتمع أيضاً، بحيث نجد في الجزء الأول من كتاب (مسائل في اللسانيات العامة) مقالاً بعنوان: (مقولات الفكر واللغة)، ونجد بعدها في الجزء الثاني من نفس الكتاب مقالاً يناقش فيه (بنية اللسان وبنية المجتمع) وهو الموضوع الذي همّنا في مقالنا هذا، والذي سنحاول أن نبين ونشرح فيه هذه العلاقة النوعية، التي يتصوّرها بنفست بين اللغة والمجتمع وفقاً لتصوّره لماهية اللغة ذاتها.

2. اللغة قالب الفكر:

تطرق بنفست لمشكلة العلاقة بين اللغة والفكر في الجزء الأول من كتابه (مسائل في اللسانيات العامة). ويرى أن الاستعمالات المتنوعة للغة، والتي لا حصر لها في التعبير عن نشاطات الفكر، أدت إلى ترسيخ الاعتقاد عند المفكرين والفلاسفة عبر التاريخ أن اللغة أداة في خدمة الفكر، وأن عمليتي "الكلام والتفكير" هما عمليتان متميزتان، لكل منهما خصائصها ومجالها ويرتبطان من أجل غاية أو ضرورة عملية وهي ضمان التواصل والتفاعل بين الناس. ولكن حسب بنفست هناك التباس وسوء فهم لحقيقة اللغة إذ يقول: "حقيقة اللغة تظل في تلك الاستعمالات المتنوعة لها لا واعية (inconsciente) في الأغلب، فخارج الدراسات اللسانية البحتة، لم يكن لدينا إلا وعي ضئيل ومتقطع بالعمليات التي ننجزها ونحن نتكلم. وثانيتهما هي أنه مهما بلغت عمليات الفكر من التجريد والاختصاص، فإنها تلقى تعبيراً لها في اللغة. يمكننا أن نقول كل شيء، ويمكننا أن نقوله كما نشاء." (إميل بنفست، 1966، ص 3) إضافة إلى أسباب أخرى لا يمكننا طبعاً التفصيل فيها هنا، كي لا نحيد عن المقصود-

ولكن حقيقة اللغة هي عكس ما تبدو عليه تماماً، كما يؤكد بنفست، فهي ليست مجرد أداة في خدمة الفكر، بل هي القالب الذي يتشكل وفقه الفكر "لا يمكنه أن ينفصل عنها ولا أن يتعالى عنها" «Il ne peut s'en dissocier et il ne peut la transcender» (Benvenist, 1966, p. 64). (للاطلاع أكثر، العودة إلى (Catégories de la pensée et catégories de langue) (Benvenist, 1966, pp. 63-74)

وكما أوهمتنا اللغة أنها أداة للفكر، أوهمتنا كذلك أنها أداة تابعة للمجتمع. وقد عمل بنفست جاهداً من أجل كشف هذا الوهم ورفع الإلتباس، الذي يعترى هذه العلاقة التي تربط اللغة بالمجتمع.

3. تحليل (تفكيك) علاقة اللغة بالمجتمع عند بنفست:

يحصّر بنفست مختلف وجهات النظر والدراسات في هذه المشكلة في موقفين، وهما:

أ - الموقف الأول: يمثل اللسانيون والأنثربولوجيون الذين يفصلون بين اللسان والمجتمع بحجة أنه لا يوجد أي تماثل بينهما لا من حيث البنية، ولا من حيث التطور التاريخي. - وتجدر الإشارة إلى أن بنفست يتحدث هنا عن اللسان بنفس معنى اللغة، لأن هدفه ليس دراسة قضية لسانية، بقدر ما هو تحليل وتوضيح مسألة أنثربولوجية، وشرح العلاقة الموجودة بين اللغة والمجتمع، كما أنه يعتبر الكلام أو النسق اللساني متميزاً ومتعالياً عن باقي الأنساق السيميولوجية ومختلف أشكال التعبير. - ولكن، كما يقول بنفست توجد شواهد تاريخية تثبت أن هناك ألسن متشابهة في مجتمعات مختلفة تماماً من حيث البنية. كما أن هناك من جهة أخرى ألسن متباعدة تماماً تعيش وتتطور في مجتمعات تشترك وتتقاسم نفس النظام والنمط الاجتماعي. أما من حيث التطور التاريخي، فتتوضح

المشكلة أكثر بحيث إن التاريخ يعطينا أمثلة عن ألسن ولغات، صمدت أمام التغيرات التي حدثت في المجتمع. وأحسن مثال على ذلك اللسان الروسي، والذي لم يطله أي تعديل في بنيته رغم التحولات العميقة التي شهدتها المجتمع الروسي منذ عام 1917.

ب- (الموقف الثاني) ويمثله أصحاب التوجه الاجتماعي عمومًا من الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع، الذين يرون أن هناك علاقة وطيدة بين اللسان والمجتمع، وأن اللسان تابع للمجتمع، وهو المرأة أو المؤشر بامتياز على أي تغيير يحصل في المجتمع أو قل الثقافة بتعبير أفضل.

ويرى بنفست أنه لا يمكن التوفيق بين الموقفين، و بل يؤكد أيضا على أنهما السبب الذي يجعلنا نبتعد عن الفهم الصحيح لحقيقة هذه المشكلة، أي نوعية هذه العلاقة التي تربط بين اللسان والمجتمع.

اعتمد بنفست على منهج فيزيائي ومنهج حفري تفكيكي من أجل فهم طبيعة اللسان، وكذلك طبيعة المجتمع والعلاقة التي تربط بينهما. ونجده يؤكد منذ البداية على وجود علاقة وطيدة بينهما بحيث يقول: "يبدو أنه يمكننا، أو بالأحرى، يتوجب علينا أن نجد من اللسان إلى المجتمع، روابط محددة وثابتة، بما أنهما تولدا معا من نفس الضرورة" (Benveniste, 1974, p.91) ولكنه يضيف بعدها ويصفهما، أي كل من اللسان والمجتمع، بأنهما "كيانان عظيمان، ولكن غير متماثلين Des grandeurs non isomorphes وهذا ما نراه أولا في الاختلاف الذي يفصلهما في نظامهما البنيوي." (Benveniste, 1974, p.93)

وهنا نتساءل: هل يعني هذا أنهما منفصلان ومستقلان عن بعضهما بعض كما ذهب إلى ذلك أصحاب الموقف الأول؟ يحلل بنفست العلاقة الموجودة بين اللسان والمجتمع، ويقدم طرحا جديدا للمشكلة وصورة جديدة لهذه العلاقة التي تربط بينهما، وذلك من خلال المستويين اللذين ذكرناهما آنفا، وهما المستوى البنيوي والمستوى التاريخي.

3. 1 أولا، من حيث البنية: نجد أن البنية اللسانية تتألف من وحدات متميزة لها أربع خصائص. وهي أنها متميزة، معدودة، قابلة للجمع وهرمية أي متسلسلة، إذ "ليس هناك أي نظام غير اللغة يتضمن إمكانية أن:

- (...) تكون وحداته قابلة للتركيب والتحليل.
- أن تُوظَّف ككلمات داخل جمل.
- أن تتغير على نحو ما (دال أو مدلول) في سياق ما.
- أن تتصرف مثل المتجانسات أو كمترادفات فيما بينها." (Benveniste, 1968 1969, p. 85)

في حين أن بنية المجتمع لا يمكن لا دراستها ولا فهمها بنفس المخطط، ولا يمكن التحليل والتركيب بين وحداتها، وذلك لأن المجتمع مزدوج في طبيعته، يتضمن نظامين مختلفين. من جهة هناك ما يسميه بنفست نظام التعالقي ((Système relationnel) أو ما يدعى بنظام القرابة (Système de parenté)، ومن جهة أخرى هناك نظام الطبقات الاجتماعية (Système des classes sociales) وهو نظام آخر للعلاقات يرتب بحسب وظائف الإنتاج.

ويقول بنفست هنا أنه لا يمكن إذن مقارنة البنية الاجتماعية بالبنية اللسانية " فكثيرا ما نتكلم عن العائلة كخلية اجتماعية، إنها استعارة لا يجب أن تغطي أو تخفي عمق الأشياء. المجتمع لا يتكون من مجموع خلايا أو عائلات متماثلة، ومجموع العائلات ليس له أدنى تماثل مع مجموع الوحدات الدالة في اللسان "

(Benveniste, 1974, p.93). فاللسان والمجتمع مختلفان من حيث طبيعتهما، ومن حيث مكوناتهما أيضا.

2-3 ثانيا أو تاريخيا: ويدعو بنفست في هذا الباب إلى تصحيح الخلط والالتباس الذي يعتري المفهومين ويبدأ أولا بتشريح -إن صح القول- مفهوم المجتمع في طبيعته المزدوجة، بحيث يقول إنه يجب التمييز بين المجتمع أولا كمعطى تجريبي وتاريخي (la société comme donnée empirique et historique) مثلا قولنا المجتمع الفرنسي، المجتمع الصيني، المجتمع الأشوري، وبين المجتمع ثانيا كاجتماع بشري، وكشرط أول لوجود الناس (comme la société) collective humaine. وموازة مع هذا التشريح الاجتماعي، يعطينا بنفست بالمقابل تشريحا لغويا لمفهوم اللسان، بحيث يميز كذلك بين اللسان كعينة تجريبية تاريخية (langue comme idiome empirique et historique) مثلا قولنا اللسان الصيني، اللسان الفرنسي، اللسان الأشوري. واللسان كنسق أو كنظام من الأشكال الدالة كشرط أول للتواصل (la langue comme système de formes signifiantes).

وهنا لا يكتفي بنفست فقط بالمقاربة بين اللغة والمجتمع على المستوى التاريخي - الذي يستدعي طبعا ويشمل بطريقة أو بأخرى المستوى البنيوي كذلك- كما جرت عليه العادة. وإنما يدرج ما يدعوه بالمستوى الأساسي. وتتحدد عبر هذان المستويان حقيقة العلاقة التي تربط بينهما واللذان يقتضيان طبعا إجابتين مختلفتين حسبه.

تتمثل الإجابة الأولى في أنه لا يمكننا الجزم بوجود علاقة ضرورية تربط بين اللسان التاريخي والمجتمع التاريخي.

وأما الإجابة الثانية، وهي عكس الأولى " فعلى المستوى الأساسي يمكننا أن نلمس وبشكل فوري تماثلات (des analogies)، بعض الخصائص المشتركة بين اللسان والمجتمع - أكرّر - أنه في هذا المستوى كل من اللسان والمجتمع هو بالنسبة إلى الإنسان وقائع لاشعورية لا واعية، وكلاهما يمثل الطبيعة، إذا استطعنا قول ذلك- فالمحيط الطبيعي والتعبير الطبيعي اللذان لا يمكن رؤيتهما وتصورهما على غير ما هما عليه لا يمكن تخيل غيابهما (...). ولا يمكن تغييرهما بإرادة الناس " (Benveniste, 1974, p.94)

بمعنى أنه على المستوى التاريخي لا يوجد أي تماثل بين اللسان والمجتمع، سواء من حيث بنيتها كما رأينا ذلك أو من حيث تطورهما عبر التاريخ أيضا.

3-3 أما على المستوى الأساسي، فكل من اللسان والمجتمع هو موروث، ولا يمكن حتى أن نتخيل أن لهما بداية معينة، والإنسان ذاته غير قادر على إدخال أي تغيير عليهما في هذا المستوى، ولهذا يصفهما بنفست "بالحقائق اللاشعورية" (des réalités inconscientes) (Benveniste, 1974, p.94).

ولعل بنفست يقصد بالمستوى الأساسي هنا المستوى الماهوي الذي يدل على كينونة الإنسان وطبيعته، إذ نجده يستعمل مصطلح " المحيط الطبيعي والتعبير الطبيعي...". فلا يمكن تصوّر الإنسان دون هذه القدرة أو هذا الاستعداد على التعبير، كما لا يمكن تصوّر وجوده ممكناً كذلك بمعزل عن الجماعة. وهذه الماهية تبقى ثابتة عبر التاريخ، وهي المرجعية الأساسية التي تلخص كنه وجود الإنسان كإنسان، بحيث لولا طبيعته الاجتماعية لما احتاج إلى التعبير من جهة، ولولا قدرته على التعبير لما كان من الممكن تحقيق وجوده الاجتماعي. ونعتقد أن هذا ما يقصده بنفست بقوله: "إنهما تولّدا من نفس الضرورة (...)" وكل منهما يستدعي وجود الآخر " (Benveniste, 1974, p.91) وكذلك قوله : "إن اللغة و المجتمع لا يمكن إدراك احدهما دون الآخر باعتبار كل منهما معطى للإنسان، يتعلمه ولا يملك عنه معرفة فطرية" (Benvenist, 1966, p. 29)

إن ما يتغير في حياة الإنسان عبر التاريخ ليس ماهيته اللسانية، ولا طبيعته الاجتماعية، وإنما ما يتغير في الواقع هو المؤسسات أو الشكل العام للمجتمع، ولكن مبدأ وجود هذا الاجتماع البشري يبقى نفسه عبر التاريخ، وعبر كل المجتمعات التي عرفتها الإنسانية منذ القديم إلى يومنا هذا ، والشأن نفسه بالنسبة إلى اللسان، فما يتغير ليس النظام الأساسي للسان وإنما تلك الأسماء التي تتضاعف وتستبدل بأخرى، و " إذا كان هذا التنوع المستمر، المتزايد للنشاطات الاجتماعية و للاحتياجات، للمفاهيم، يقتضي ويتطلب أسماء جديدة على الدوام، فيجب بالمقابل أن تكون هناك قوة مُوَحِّدة (une force unifiante) تحقق التوازن. فوق الطبقات، فوق المجموعات والنشاطات المخصصة تسود قوة متناسقة، (un pouvoir cohésif) هي التي تنشئ مجموعة من الأفراد وتخلق إمكانية للإنتاج في حد ذاته والاستدامة الجماعية (la substance collective) وهذه القوة هي اللسان واللسان وحده. " (Benveniste, 1974, pp 94.95) ولهذا السبب فاللسان هو بمعنى العنصر الثابت (une permanence) الذي لا يتغير داخل المجتمع والمستمر (une constance) الذي يربط بين النشاطات المتنوعة. " إنه الهوية عبر التنوعات الفردية (une identité à travers les diversités individuelles). " (Benveniste, 1974, p.95)

ومما سبق، يتساءل بنفست: كيف لنا أن نطرح هذه العلاقة الموجودة بين اللسان والمجتمع، حتى نوضح من خلال تحليل الأول (اللسان) تحليل الثاني (المجتمع)؟

يؤكد بنفست أن العلاقة بين اللسان والمجتمع ليست بنيوية، باعتبار أن المنظومة اللسانية تختلف عن المنظومة البشرية، وكما لا يمكن أن تكون العلاقة بينهما نمطية أي طبيعية لأن نمط اللسان وطبيعته لا تؤثر على طبيعة المجتمع. ولا يمكن أيضا أن تكون العلاقة هنا تاريخية، أو كذلك جينية بما أنه لا يتولد أحدهما عن الآخر.

هنا نتساءل: ما هو هذا الطرح الجديد يا ترى؟ ما هي هذه الصورة الجديدة للعلاقة بين اللغة والمجتمع التي صاغها ووضعها بنفست؟

4. العلاقة السيميولوجية بين اللغة والمجتمع:

يقدم بنفست طرحًا جديدًا لهذه العلاقة في إطار نظريته في اللغة، وهو الطرح السيميولوجي.

4. 1 اللغة متعالية وسابقة سيميولوجيًا على المجتمع:

يقوم الطرح الجديد كما يقول بنفست على افتراض اللسان والمجتمع في "تزامن وفي علاقة سيميولوجية، وهي علاقة المُفَسِّرِ بِالْمُفَسَّرِ (le rapport de l'interprétant à l'interprété)، ونصوغ هاتين الفرضيتين كما يلي: أولاً، اللسان هو مُفَسِّرُ المجتمع (la langue est l'interprète de la société)، ثانياً، اللسان يَتَضَمَّنُ المجتمع (la langue contient la société)" (Benveniste, 1974, p.95).

وقبل أن نفصل أكثر في هذه العلاقة "اللغة كمُفَسِّرِ والمجتمع كمُفَسَّر"، ندعو القارئ إلى التأمل معنا فيما يلي:

ونحن نقرأ هذا المقطع من مقال (بنية اللسان وبنية المجتمع) في الجزء الثاني من كتاب (المسائل)، نستحضر مقطعا من مقال (مقولات الفكر ومقولات اللغة) في الجزء الأول من نفس الكتاب، يقول فيه بنفست: "بين فكر لا يتجسد إلا في اللغة، ولغة لا وظيفة لها سوى أن تدل وتعني، نود أن نقيم علاقة نوعية لأنه من الواضح أنه ليس هناك تناظر بين المصطلحين. والحديث عن الحاوي والمحتوى (contenant et contenu) هو تبسيط للموضوع." (Benvenist, 1966, p. 64) وهذه العلاقة النوعية والخاصة كان يقصد بها هنا كذلك العلاقة السيميولوجية، التي تحكم اللغة وكل ما يمكن أن يتعلق أو يرتبط بها. ولعل هذه هي المسلمة المنهجية والنظرية المفتاحية لفهم تفكير بنفست، وتصوّراته النوعية لمختلف المشكلات اللسانية أو غير اللسانية.

إذن، التلازم لا يوجد بين اللغة والفكر فقط، بل كذلك بين اللغة والمجتمع، ولا يمكن حسب بنفست الفصل بين هذه الكيانات المتناظرة من حيث وجودها، مع أن ذلك لا يمنع من جهة أخرى أن تتميز اللغة بنوع من التعالي من حيث طبيعتها السيميولوجية. وهذا ما سنوضحه أكثر فيما سيأتي.

2.4 اللسان المتضمن للمجتمع يبرر اللسان المُفسّر للمجتمع :

يشرح بنفست بأن ما يبرر أن اللسان يفسّر المجتمع هو كونه يتضمنه، أي أن الافتراض الثاني يبرر الافتراض الأول. ويقول إنه يمكن التحقق من هذا الأمر بطريقتين وهما:

4. 2. 1. أولاً، بطريقة تجريبية : إذ يقول : "يمكننا عزل اللسان، دراسته ووصفه لذاته دون الرجوع إلى استعماله في المجتمع.(...) في حين أنه من غير الممكن وصف المجتمع، وصف الثقافة خارج تعابيرها اللسانية. بهذا المعنى، فإن اللسان يتضمن المجتمع لكن المجتمع لا يتضمنه" (Benveniste, 1974, pp 95-96) " فلا يكون اجتماعياً إلا ما تُسمّيه اللغة فقط" (Benveniste, 1968 1969, p. 79) (N'est social que ce que la langue dénomme)

والمقصود مما سبق أن اللسان الذي يجسّد المجتمع ويستوعب كل تغيراته، لا تتأثر بنيته الخاصة ولا تتغير إلا ببطء شديد - ما عدا التغيرات التعسّفية إثر الغزوات والحروب - وفي حالات نادرة، ولضغوط داخلية، وهو يشتغل مثل الآلة التي تنتج المعنى وتنتج رسائل متنوعة ولا متناهية لأنه يحمل حسب بنفست خصائصاً سيمانتقية ينفرد بها، محايثة ومتأصلة في أعماق مستوياته وهي ثلاث خصائص:

أما الخاصية الأولى، تتعلق بطبيعته في حد ذاتها وبكونه يتشكل من وحدات دالة. فاللسان هو نظام أو نسق من العلامات الدالة، كما يعرفه بنفست. وهذا هو مستوى السيميولوجيا.

الخاصية الثانية تكمن في وظيفته، أي في القدرة على ترتيب هذه العلامات الدالة، حيث إنها تؤدي معنى. وهذا هو مستوى السيميوتيقا.

والخاصية الثالثة هي خاصية التركيب (la propriété syntagmatique) ودورها هو الجمع والربط بين العلامات الدالة وفق قواعد التعاقب والتسلسل. " ولا شيء يمكن فهمه، ويجب علينا أن نقتنع بذلك، إذا لم يتم حدّه باللسان " (Benveniste, 1974, p97) وهذا هو مستوى الميتاسيمانتيقا، إذ " توجد العلامة في استعمال اللسان؛ وما لا يدخل في استعمال اللسان ليس علامة، وهو غير موجود حرفياً. ليس هناك حالة وسطى بينهما؛ إما أننا في اللسان أو خارج اللسان" (Benveniste, 1974, p. 222). فاللسان هو من يُفعّل العلامة داخل النسق ويجعل لها معنى لكي تحمل دلالة معينة في الخطاب.

ورغم أن اللسان يتشكل من علامات دالة معدودة في النهاية، إلا أنه يملك هذه القدرة على ربطها وترتيبها لإنشاء ما لا يعدّ من التلفّظات، أي من الرسائل التي تحمل معنى. وكأنّ بنفسه يستحضر هنا الوحدة التركيبية للتنوع عند كانط (1724-1804) التي تعمل على الربط بين التمثيلات في عملية الفهم، بحيث يرى أنه وبفضل هذه القدرة على تحويل التجارب ومختلف النشاطات الاجتماعية إلى علامات دالة، وبفضل هذا الرّد أو الاختزال المقولاتي réduction catégorielle - وهنا كذلك يظهر تأثيره بالفنيومينولوجيا - يمكن للسان أن يتخذ كموضوع له أي ترتيب من المعطيات وفي أي مستوى وصولاً حتى إلى طبيعته الخاصة، لذا يقول: "هناك الميتا-لغة، وليس هناك الميتا-مجتمع" وفي أي مستوى وصولاً حتى إلى طبيعته الخاصة، لذا يقول: "de métasociété Il y a une métalangue, il n'y a pas موضع آخر: "إن ما يميّز اللسان عن جميع الأنساق السيميوتيقية الأخرى، هو أنه لا يوجد أي نسق سيميوتيفي قادر أن يجعل من نفسه موضوعاً لذاته، ولا أن يصف نفسه بمصطلحاته الخاصة (...). أليس اللسان هو المفسّر لكل الأنساق السيميوتيقية إذن؟" (Benveniste, 1968 1969, pp. 85-86)

ويحتوي اللسان إذن، المجتمع ويحيط بمختلف جوانبه من خلال جهازه المفاهيمي (Appareil conceptuel) وينشئ ما يسميه بنفسه الدلالية أو السيمانتيقا الاجتماعية sémantisme sociale وهو حسب الجزء أو البعد الأكثر استثماراً وبحثاً من قبل المؤرخين والدارسين لعلاقة اللسان بالمجتمع. ولهذا فإن معجم اللسان (Le vocabulaire) في أي لغة وبوصفه نسقاً من المسميات والاصطلاحات هو ثابت، ولكنه ليس جامداً، بل متجدّد باستمرار ويتسع لكي يسع مختلف الجوانب ويستوعب مصطلحات جديدة.

ومن هذا المنطلق، يمكننا القول إن اللسان بالمعنى الذي يتصوّره بنفسه هو بمثابة الذاكرة التي تختزن وتحتضن كل أشكال الحياة الاجتماعية وصور التنظيمات السياسية والاقتصادية وغيرها من المجالات.

ولكنه يحذّرنا من حقيقة تجريبية شائعة، وهي الاعتقاد أن حالة المجتمع في عصر ما تظهر دائماً من خلال المعجمية المعتمدة فيه، لأنه قد يحدث أن تبقى هذه المعجمية أي المفردات متداولة، مع أنّ مراجعها الأصلية قد تغيرت. وأحسن مثال على ذلك مصطلحي اللسان والمجتمع اللذان نستعملهما الآن وبمعاني متنوعة. "وإن تعدّد الدلالة (Polysémie) في اللسان يعبر عن قدرته على تجميع أنواع كثيرة ومتنوعة من الدلالات في لفظ واحد ثابت، وثم جعل هذا التنوع في الدلالة جزءاً من ثبات المعنى." (Benveniste, 1974, p 98)

2.2.4 أما الطريقة الثانية، فهي نوع من التحليل اللساني يُبين فيها بنفسه كيف أن اللسان هو الذي يسمح لنا بالتمييز بين الفرد والمجتمع، بحيث عندما يتحدث كل واحد منا، فإنه ينطلق من ذاته ويعود إليها، يتموضع كذات أمام الآخر، وذلك من خلال ضمائر الشخصية ومؤشرات سياقية أو غيرها، التي تتمظهر بها الذاتية في اللغة، وهي

ثابتة في اللسان وتُشكل ما يُعرف عند بنفست بالهيكل الصوري للتلفظ. (l'appareil formel de l'énonciation). (وهو يمثل محور لسانيات التلفظ التي تأسست على يد بنفست. للاطلاع على هذه الفكرة أكثر، ارجع إلى (Benveniste, 1974 , pp79-88)

"اللسان الذي هو متظاهر لأعماق الذات، غير قابل للاختزال، في كل فرد، هو في الوقت ذاته حقيقة تعلو على الأفراد (Supra individuelle) ومشاركة مع الجماعة كلها (...). اللسان يوفر الأداة اللسانية التي تضمن هذه الوظيفة المزدوجة، الذاتية والمرجعية للخطاب: التمييز الأساسي الذي نجده في أي لسان كان، وفي أي مجتمع و أي عصر بين "الأنا" و "الأننا" من خلال مؤشرات خاصة ثابتة في اللسان والتي لا تعمل إلا على إيفاء هذه الغاية، وهي الأشكال النحوية التي تدعى الضمائر التي تحقق تقابلاً مزدوجاً بين "الأنا و أنت" و بين "أنا- أنت / هو". (Benveniste, 1974, p99). وإن الضمائر أو هذه الأشكال اللسانية كما يسميها بنفست، هي التي تحدّد وضعية "الأنا" في الخطاب، بحيث يوجد نوعين من التقابلات، التي يمكن أن تتموضع فيها "الذات" أو "الأنا"، وهي كما يلي:

أ- علاقة التقابل بين "الأنا / أنت"، وهي العلاقة التي تجسّد بنية محادثة شخصية. وهذا النوع من التقابل يُعرف عند بنفست بالتلفظ الذاتي، ومحوره هو الذات التي تتحدث وتستخدم اللسان لحسابها الخاص.

ب- علاقة التقابل بين "الأنا – أنت / هو" وهي لا تمثل محادثة شخصية، بل هي إن صح القول ما يسمح للأننا أن يجعل من أي شيء ما في العالم موضوعاً للحديث. بمعنى أن "هو" أو ضمير الغائب هنا لا يمكن أن يكون أبداً طرفاً في المحادثة. بالتالي، قد يتحول إلى موضوع للحديث مثله مثل أي شيء آخر في هذا العالم. وهذا ما يدعوه بنفست بالتلفظ غير الذاتي، ومحوره اللاشخص (ضمير الغائب "هو") الذي ليس له أية إحالة للشخصانية.

ولا يمكن فهم نظام العلاقات عند بنفست، إلا على أساس هذه: "الطبيعة المزدوجة للسان الذي يحمل مفارقة في أعماقه، باعتباره محايثاً للفرد (immanente à l'individu) ومتعالٍ عن المجتمع في أن واحد (transcendante à la société) وهذه الثنائية توجد في كل خاصّيات اللغة. (Benveniste, 1974, p95) وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على هذه الطبيعة النوعية والخاصة لملكة اللغة، وكما يدل أيضاً على احتفاظ بنفست بفكرة الثنائيات التي اعتمدها سوسير (1857-1913) من قبل، وعمل هو على استثمارها بشكل يخدم تصوّراته الخاصة.

3.4 اللغة (اللسان) هيكل المجتمع:

إن وجود المجتمع كنظام من العلاقات يتجسد فعلاً حسب بنفست من خلال اللغة، ويتميّكل عبر ممارسة الأفراد للسان في مختلف أشكال الخطاب والتواصل. وفهم المجتمع يستوجب فهم طبيعة اللسان في حدّ ذاته. ولهذا يتحدث بنفست عن تضمين أو إدراج المتكلم داخل خطابه. وهو "اعتبار براغماتي يضع الشخص في المجتمع في

موضع المشارك وينشر شبكة مركبة من العلاقات الزمكانية (Relations spatio-temporelles) التي تحدّد أنماط التلفظ. (Benveniste, 1974, p99) بمعنى آخر، إن اللّسان يجعل الفرد يعي وجوده وهو يتموقع في المجتمع، وفي الطبيعة في إطار طبقة معينة، سواء تعلّق الأمر بطبقة لها سلطة أو طبقة إنتاجية.

إن ممارسة الأفراد للّسان في الواقع، هو الذي يكشف عن الاختلافات والتباينات التي تنتج داخل اللّسان المشترك في المجتمع الواحد، وهو ما يدعوه بنفست بنفست تخصيص الطبقات أو الكتل لجهاز أو هيكل الدلالة (L'appareil de dénotation) طبقة اجتماعية تُخصّص مصطلحات عامة وتُسند إليها مرجعيات خاصة، وتدمجها بذلك في حيّز مصلحتها الخاصة. وعادة ما تشكل منها أساساً لاشتقاقات جديدة، كي تُحمّلها قيماً جديدة تدخل في لسان الجماعة، أين تؤسس لاختلافات معجمية جديدة (Les différenciations lexicales) (Benveniste, 1974, p100) ويقدم لنا بنفست مثلاً في هذا الإطار عن مفردات ومعجم المقدّسات في لغة باباوات الرومان القدامى.

1.3.4 اللّسان مقام النظم والقيم الاجتماعية:

وجد بنفست من خلال تحليله وتتبعه للعلاقة بين المجتمع واللّسان أنه يتعامل أكثر مع الآليات التي تجعل من اللّسان هو المقام (Le dénominateur) على حد تعبيره، والمُفسّر للوظائف والبنى الاجتماعية، مع أنه لا ينكر وجود حالات تماثل وتشابه واسعة في عمق بنيتهما ووظائفهما، والتي تحتاج لدراسات وافية من أجل توضيحها. ويقدم لنا مقارنة أولية من خلال ثلاثة مفاهيم، وهي كالآتي:

أولاً: يمكننا اعتبار اللّسان في المجتمع بمثابة نظام منتج (Système productif)، ينتج المعنى والتلفظات وأشكال ومخطّطات من أجل ضمان التواصل، وذلك بفضل تركيبته وخصائصه السيميولوجية والسيميوتيقية "إن الذي يتكلم يمكنه انطلاقاً من عدد قليل ومحدود من المكونات الأساسية الأولى أن ينشئ علامات، و ثم مجموعات من العلامات وأخيراً ملفوظات متنوعة، تكون كلّها قابلة لأن تعرف وتدرّك من قبل الآخر لأنه مزود هو الآخر بنفس النظام" (Benvenist, 1966, p. 23)

ثانياً: اللّسان هو نظام للقيم (Système de valeurs) ويقول بنفست إن هذا الأمر تطرق إليه من قبل سوسير الذي أقرّ أن الاقتصاد مثل اللّسان هو نظام للقيم، حتى أنه شبّه علاقة الدال بالمدلول بالعلاقة بين العمل والأجر. وهذا التشبيه حسب بنفست من شأنه أن يثير تأملات طويلة، ويمتد إلى مفهوم ثالث مرتبط بالقيمة وهو مفهوم التبادل.

وثالثاً: اللّسان يحمل إذن مفهوم التبادل (La notion de l'échange)، وهذا ما لا يمكن فهمه عند بنفست إلا على ضوء تصوّره للسيميوتيقا والسيمانتيقا في مفهوم العلامة وإنتاج الدلالة.

يتجاوز بنفست ثنائية "المحور الاستبدالي والمحور التركيبي" كما وضعها سوسير، بتجاوزه مستوى السيميولوجيا إلى مستوى السيميوتيقا و السيمانتيقا، و نكتفي هنا بالقول و باختصار إن "السيميوتيقا تتميز بأنها خاصية للسان، و أما السيمانتيقا هي تنتج عن نشاط المتحدث الذي يستعمل اللسان". (Benveniste, 1974, p225) لذلك، فإن تحقيق المعنى في السيمانتيقا حسب بنفست يتوقف على صياغة التراكيب وكيفية الربط بين مختلف الكلمات في الحديث على المحور التركيبي (Syntagme)، خلافا لما نجده في السيميوتيقا أين يتحدّد وفقاً لعلاقات البراد يغم (Paradigme)، أي مختلف الأشكال التي يمكن أن تأخذها كلمة معينة على المحور الاستبدالي. "وهاتان عمليتان نموذجيتان ومتكاملتان". (Benveniste, 1974, p225)

يرى بنفست أن مختلف القيم التي توجد في المجتمع، وتعبّر عن ثقافته تنطبع في اللسان وتتجسد من خلاله. ويكفي في المستقبل أن نُفصّل في هذه المفاهيم التأسيسية الثلاثة كي نتجاوز النظرة التقليدية السطحية التي تضع اللسان بجانب المجتمع، ونقيم بينهما علاقات منطقية ووظيفية في أن واحد؛ منطقية من حيث ملكاتهما وعلاقاتهما الدالة، وعلاقات وظيفية بوصفهما أنظمة إنتاجية، وكلّ حسب طبيعته الخاصة. ولا يمكن أن نتصور أي معنى لوظيفة اللغة خارج الإطار الاجتماعي من جهة، كما ليس هناك أي معنى بل لا وجود لأي نوع أو أي شكل مهما كان من أشكال الاجتماع البشري دون وجود هذه الآلية الأساسية في التواصل، وفي إنتاج المعنى وهي اللغة واللسان. أما منطقيا، فهو من حيث علاقة الدلالة التي تربطهما كثنائية سميولوجية، لا بد أن يكون أحدهما مُفسّرا وان يكون الآخر مُفسّرا، اذ يقول بنفست "إن اللسان هو المفسّر لكل الانساق السيميوتيقية. ليس هناك نسق آخر يتوفر على لغة يستطيع تصنيف ذاته من خلالها وتفسير نفسه بنفسه وفقا لمميزاته السيميولوجية، في حين أن اللسان يمكنه، مبدئيا، أن يصنّف ويفسّر كل شيء بما في ذلك ذاته" (Benveniste, 1974, pp 61-62) (للاطلاع أكثر يمكن العودة إلى (Sémiologie de la langue) (Benveniste, 1974, pp.43-66) و (إميل بنفست 1974، ص ص 55-65) وأيضا إلى: (La forme et le sens dans le langage) (Benveniste, 1974, pp 214-238).

بناء على ما سبق، يمكن القول إنه ليس هناك تبعية أو أسبقية بين اللسان والمجتمع، وإنما هناك تزامن وتحيث، وإن كان هذا التزامن لا يمنع حسب بنفست أن يكون للسان نوع من الأولوية أو التعال على المستوى المنطقي و السيميولوجي، لا على المستوى التاريخي، بحيث يكرّر أكثر من مرة أنه لا يمكن أن تحدّد بداية أو أصل أي منهما، "من المستحيل التأريخ لأصول اللغة وكذلك لأصول المجتمع". (Benveniste, 1974, p 23) ولكن يمكننا على المستوى المعرفي أو بالأحرى على المستوى السيميولوجي و السيمانتيقي أن نقول إن اللسان هو الذي يؤسس للمجتمع. و يبقى الأهم حسب بنفست هو البحث في الأسس وليس في الأصول اذ يقول: "لا يتعلق الأمر أبدا بالأصول وإنما بالأسس، ونجد في أسس كل شيء ترميز اللسان بوصفه القوة أو القدرة على الدلالة (Il ne s'agit plus des origines, mais

des fondements, et au fondement de tout se trouve la symbolique de la langue comme pouvoir de signification (...) وفيما سبق من محاولات في المجال الاجتماعي، فإن أسبقية اللسانيات مُعترف بها صراحة. وهذا ليس على الإطلاق بحكم أي تفوق جوهري، ولكن ببساطة لأننا مع اللغة في أساس أي حياة من العلاقات." (Benveniste, 1974, p26) ولكن ماذا يقصد بنفست بحياة العلاقات هنا؟

2.3.4 اللغة أساس حياة العلاقات :

يؤكد بنفست أنه لا توجد أية علاقة مباشرة بين الإنسان والإنسان ولا بين الإنسان والعالم أو أي شكل من أشكال العلاقات في عالم الإنسان، إلا بوساطة اللغة، ومن خلال ما يدعى بملكة الترميز (La faculté symbolique). التي تُمَثِّل الأشياء في صورة علامات لسانية حتى تكون لها دلالة ويفهمها الإنسان، وهي خاصية لسانية وبالتالي، فهي إنسانية بامتياز. " فاللغة تعيد إنتاج العالم، ولكن بإخضاعه لنظامها الخاص (...) اللغة تمثل هذه الصورة العليا لملكة محايدة لشرط وجود الإنسان وهي ملكة الترميز (...) ونقصد بالترميز تمثيل الواقع بعلامة، وإنشاء بذلك علاقة دلالة بين شيء وشيء آخر " (Benvenist, 1966, pp. 25-26) فالإنسان سواء في ما قبل التاريخ أو في الزمن المعاصر يُولد في أحضان الثقافة التي تنطبع في اللسان، وهي "محايدة دائما للمجتمع، هي ظاهرة ترميزية كلياً" (Benvenist, 1966, p. 30) ، بمعنى آخر إنها تمثيلية، يتوقف وجودها على العلامة اللسانية. ويقول بنفست في موضع آخر: "وهنا نظرة أو تصوّر يخصني، والذي يبقى علينا أن نوضحه. علينا أن نعمل على أن نعدّ تقريبا هيكلًا من التعريفات في هذا المجال الواسع، والذي لا يتضمن فقط اللسان. وهذا يجزئي كذلك إلى الثقافة. إن الثقافة تميّز أيضا بين ما له معنى وما ليس له معنى." (Benvenist, 1966, p. 22)

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الثقافة يقصد بها بنفست كل ما يمكن أن يتعلق بمجال الإنسان. ولعلّ هذا ما أدى إلى الحديث عند اللسانيين والمؤرخين عن نظرية في أنثربولوجيا اللغة عنده. ونذكر من بينهم على سبيل المثال: "جيرار ديسون (Gerard Dessons) و جون كلود كوكيت (John Claude Coquet)، ايغان فينوغلو (Irène Fenoglio)، شارل ملامود (Charles Malamoud)، كلوي لابلاتين (Chloé Laplantine) و فال دي ناسيمونتو فلورز (Val de Nascimento Flores) الخ (وهم أشهر اللسانيين الذين اهتموا بأعمال بنفست مؤخرا، وكانت لهم منشورات حديثة جدا في هذا الإطار، وللإطلاع أكثر على الموضوع، يمكن العودة إلى المؤلف: Guseppe D'ottavi et Irène fenoglio, 2019 , pp217-219).

ويقول فال دي ناسيمونتو: " يعتمد بنفست في أعماله على ثلاثية إبستمولوجية، والتي تؤسس لأنثربولوجيا: الانسان، اللغة، والثقافة. هذه الثلاثية مسخرة في كل تحليلاته للغة، سواء المقارنة أو تلك التي تتعلق باللسانيات

العامة أو بالتلفظ." (D'Ottavi & Irène Fenoglio , 2019, p. 207) وبنفست نفسه يعترف أنه لا جدوى من محاولة دراسة اللغة دراسة شكلية مجردة وبمعزل عن مختلف العلوم الإنسانية كما فعلت البنيوية اللسانية من قبل، بل هناك نوع من الخصوصية في اللغة وإن " هذه الخصوصية لا يمكن علاجها وهي التي تخلق لها صعوبة خاصة بالنسبة لأي نظرية وحدوية *théorie unitaire*؛ فهي- أي اللغة- تتطور دائما بالتقاء الطبيعة والثقافة. " (Irene Fenoglio, 2016, p. 38) أي يمكننا أن نفهم بشكل أحسن طبيعة العلاقات السيميولوجية للغة وماهيتها -من حيث انها ترمز وتمثل، تعني أو تدل- وهي محايدة، ملازمة ومرتبطة بالطبيعة والثقافة. ولهذا تقول اغان فينوليو (Irène Fenoglio، وهي من المتخصصين في دراسة أعمال بنفست): "لا يتعلق الامر عند بنفست بنظرة انثربولوجية للغة فقط بل هي كذلك رؤية لسانية ولغوية للمجتمع الإنساني، وهي نظرة للغة - وهي مجهزة بنظامها في اللسان، هي في حد ذاتها تُنطق وتُمارس في الخطاب - بوصفها المفسر للمجتمع وللإنسانية " (D'Ottavi & Irène Fenoglio , 2019, p. 46)

5. خاتمة:

خلاصة القول، إن اللغة سابقة ومتعالية على كل شيء يتعلق بالإنسان لأنها ببساطة هي ماهيته الأولى "ففي اللغة ومن خلالها يتحدّد الفرد والمجتمع بشكل متبادل. وقد شعر الإنسان دائما بهذه القدرة أو القوة التأسيسية للغة، التي تؤسس لواقع خيالي، تُنشط الأشياء الجامدة، تجعلنا نرى ما لم يعد موجودا، وتستحضر لنا ما اختفى. ولهذا فإن الكثير من الأساطير التي أرادت أن تفسر كيف أنه في بداية الزمن شيء ما تولّد من لا شيء، جعلت هذه الماهية غير الملموسة والسيدة والتي هي "الكلام" مبدأ لخلق العالم. ولا توجد قدرة أعلى منها وجميع قدرات الإنسان دون استثناء، إن شئنا أن نفكر فيها تنبثق منها. فالمجتمع غير ممكن، إلا بوجود اللغة، واندماج الطفل كفرد في المجتمع يتزامن مع تعلمه للغة." (Benveniste, 1966, p25) و ما يمكن قوله في الأخير هو أن كل شيء يتعلق بالإنسان يمرّ ويمرّ عبر اللغة فحسب، في نظر بنفست.

قائمة المصادر والمراجع باللغة العربية:

- 1- اميل بنفست (1966) *مقولات الفكر ومقولات اللغة*، ترجمة وتقديم: عبد الكبير الشرقاوي، مجلة الجابري، العدد السادس عشر 2016-05-07.
- 2- اميل بنفست (1974) *سيميولوجيا اللغة*، ترجمة سيزا قاسم، فصول (مجلة النقد الادبي)، المجلد الأول، العدد الثالث مصر، ابريل 1981، جمادي الاخرة، 1401.

قائمة المصادر والمراجع باللغة الفرنسية:

- 1- Emile Benveniste (1966), *problèmes de linguistique générale 1*. Edit Gallimard, France
- 2- Emile Benveniste (1974), *problèmes de linguistique générale 2*. Edit Gallimard, France
- 3- Emile Benveniste (1968-1969), *Dernières leçons*, Edit Hautes Etudes (EHESS-Gallimard- Seuil), France.
- 4--Irene Fenoglio, Jean-Claude Coquet , Julia Kristeva ,Charles Malamoud, Pascal Quignard (Janvier2016) *Autour d'Emile Benveniste* (Manuscrits de Benveniste - collège de France, cote CDF28/17) Edition Le Seuil, Paris.
- 5-Giuseppe D'Ottavi et Irène Fenoglio (2019), *Emile Benveniste, 50 ans après les problèmes de linguistique générale*, Edition Rue d'Ulm /Presse de L'école normale supérieure.
- 6- Didier JULIA (1964), *dictionnaire de la philosophie*, Librairie LAROUSSE, paris, France .